حرب الاستعادة الإسبانية:
هل هي حرب كلونية مقدسة ضد الإسلام؟ *

ڤيسنت كانتارينو

موضوعي بقدر ما هو بسيط في صياغته بقدر ما هو معقد ومركب في النتائج المترتبة عليه. فهو بسيط لأنه يفترض أن السكان المسيحيين في إسبانيا أصبحوا يرون حرب الاستعادة (Reconquista) بوصفها حرباً مقدسة تعد أساسية لفهم إسبانيا كأمة، وهو معقد مركب لأنه يعتبر الظروف والشكليات التي تؤثر على تشكيل فكرة الاستعادة كحرب مقدسة، ولفهم ذلك يجب علينا أن نلمس جوانب عديدة من التاريخ الثقافي والديني لأوروبا الوسيطية، وهو مجال قد لا نجد باحثَين على اتفاق تام في موضوعاته.

وعموماً، فإنّ الباحثين يدركون جيداً أوجُه التوازي التاريخية بين تطور فكرة الحرب المقدسة والسيطرة الروحية والسياسية لما سُمّي بالإصلاح الكلوني في أوروبا الغربية. لكن مع ذلك هناك مدى واسع ومتنوع في تفسير ما إذا كان هذان الحدثان على علاقة ببعضهما البعض. فمن ناحية، يرجع البعض الفضل للرهبان الكلونيين (Cluniac) في تطوير موقف عنيف ضد الكفار، مبدعين بذلك روحاً حربية ضرورية، ومن ثم يمكن تبريرها باسم الله. ويعتبر البعض الآخر هذه الروح العسكرية غريبة جداً على الروحانية الكلونية، ويبحثون عن

(*) ترجمة لمقالة: Vicente Cantarino: The Spanish Reconquest: A cluniac Holy War Against Islam? In: Khalil I. Semaan (ed.) Islam and Medieval West; Aspects of Intellectual Relations, Albany State University of New York Press, 1980, pp. 82-109.

وترجم المقالة إلى العربية الدكتور أبو بكر باقادر.

أصولها في أماكن أخرى، وكلا الطرفين يفكر من داخل وخارج المسيحية نفسها. فالذين يؤمنون بأن فكرة الحرب المقدسة قد نشأت في المسيحية يجدون البذور لتطور موقف أكثر حريةً وتجانساً؛ وهو موجود أصلاً في زمان الأباطرة المسيحيين الأوائل. أما من يبحثون عن أصل الحرب المقدسة خارج المسيحية فإنهم يرجعون تطورها كلياً إلى الإسلام. ففي ظل الضغط العسكري الإسلامي، نضحت في المسيحية فكرة الحرب الصليبية. وبالنسبة لهؤلاء يعد المفهوم الإسلامي للحرب المقدسة (الجهاد) وما يترتب عليه من هجوم على الأماكن المقدسة، هو ما أجبر المسيحية، بخلاف روحانيتها التقليدية، أن تجيب بالمثل، إما كما يرى البعض دفاعاً مشروعاً عن النفس، أو، كما في بعض التفسيرات، في شكل حماية عنيفة لحرمات الله ومصالح المسيحية على الأرض ضد الخطر المسلم.

وكذلك سنجد أن الآراء مختلفة متباينة بين الباحثين فيما يتعلق بحرب الاستعادة الإسبانية وأثرها على الدين والروح الحربية الدينية. فبينما يقلل البعض أو حتى لا يعترف بأهمية الدين والمثل الدينية كدافع للحرب ضد المسلمين، فإن آخرين يرونها بكل تأكيد أبرز الجوانب، بل الجوانب الأساسية للروحانية الإسبانية. فبالنسبة لهم ينبغي النظر لحروب الاستعادة بوصفها نوعاً من الحرب القومية المقدسة والحرب الصليبية ضد الإسلام. لكنهم مع ذلك، لا يتفقون على أصل هذه الفكرة داخل شبه الجزيرة الإيبيرية، إذ إن بعضهم يرى أن التطور الطبيعي لروحانية مسيحية كان موجوداً ويمكن التعرف عليه حتى في مراحل مبكرة من الصراع ضد الإسلام في جبال أستوريا (Asturia). أما البعض الآخر، فيعتبرها تطوراً متأخراً نتيجة تغير المواقف المسلمة والمسيحية، ومن الأمثلة المحسوسة، في الواقع، على تأثير المسلمين على الروحانية المسيحية في شبه الجزيرة.

وهكذا فإننا نواجه مجموعةً من الآراء المتضاربة وغالباً المتعارضة كلياً، لذلك فإننا لن نحاول تقديم حلٍّ حاسم يرضي جميع الأطراف. لكن مع ذلك فإن الموضوع الذي اخترناه يستحق اهتماماً خاصاً، إذ إنه يركز على أكثر

الجوانب أهمية في الحياة الروحية والثقافية في شبه الجزيرة الإيبيرية، ودورها كرابط أو قنطرة بين الإسلام والغرب المسيحي. ففكرة أن حرب الاستعادة الإسبانية كانت حرباً صليبيةً وحرباً مقدسة ضد الإسلام وأنها عملت كقاعدة للمسيحيين الإسبان كأمة، فكرة غير متوافقة مع الفكرة القائلة، في الوقت نفسه، بوجود رغبة غير مشروطة في شبه الجزيرة لامتصاص ونقل الثقافة المسلمة، حتى خلال القرون التي كان الإسلام فيها لا يزال عدواً رهيباً. فقبول الرأيين مسألة يجب أن تكون موضع مُساءلة، لكن مع ذلك فإن هذه المسألة أمر شائع بين الباحثين اليوم.

إن هذا اللاتجانس الظاهر هو ما دفعني إلى إعادة النظر في بعض الآراء التقليدية، على أمل الوصول إلى إجابات جديدة وهو ما يبرر تقديم بحثي هذا.

يظهر كتّاب التواريخ المبكرة (Chronica) حول سقوط مملكة القوط Visigothic بسبب هجوم العرب المسلمين (Saracen) وبداية المقاومة في جبال أستوريا بشكل واضح تحيزاً مسيحياً. فهم لا يميلون فقط إلى تفسير حوادث الماضي على ضوء مواقفهم الروحية وإنما يبدعون بشكل فعّال أيضاً استمرارية تاريخية مصطنعة عن طريق إسقاط تفسيراتهم الخاصة على الأحداث التي يقدمون تقارير عنها. كذلك ليس من المستغرب عليهم، كرهبان، أن يميلوا إلى فحص كل الأحداث التاريخية في ضوء قدرة الله، وكيف أن هذه القدرة أو العناية تتدخل بشكل حميمي ومباشر في تحديد مصير الأفراد والمدن بل المجتمعات والممالك. ونظراً لأنهم من أصول قوطية، فكان من الطبيعي أن ينظروا للتغيرات السياسية التي أدخلها الفاتحون على المجتمع القوطي المسيحي بوصفها كارثة ذات أبعاد نشورية.

توضح قراءة التواريخ الأسبانية المبكرة التي تعالج موضوع حرب الاستعادة أن الاهتمام الأساسي لمؤلفيها هو بشكل دقيق: تقرير اغتصاب الحكم الشرعي لملوك القوط على يد الغزاة (العرب المسلمين) والجهود الأولية لاستعادة القوط للملك. لكن في الوقت نفسه، نجدهم يقدمون تفسيراً لاهوتياً لأسباب تحطيم أمة مسيحية على أيدي كفار برابرة، وعرض لاهوتي للوسائل

والأساليب المؤدية لقيام إصلاح مسيحي.

ورغم أن الكتابات التاريخية المبكرة لا تقدم إلاّ بشكل مختصر ومختزل الاعتبارات المجردة والنظرية، إلا أنها مع ذلك تُشَكِّل دليلاً كافياً على الأفق السياسي والديني لمؤلفيها. فجميعهم مُطْبقون في التأكيد على حقيقة أن المعتدين لم يكونوا قادرين على احتلال كل أجزاء الجزيرة، وأن فرق جنود صغيرة لجأت للجبل بحثاً عن ملجأ، ومن هناك بدأوا هجومهم المضاد. وكان هؤلاء الجند في الحقيقة يتحدرون من أصول قوطية نبيلة، وكانوا في الواقع حماة النظام التقليدي والشرعي. لهذا السبب جعلوا بيلاغيوس (Pelagius) أول بطل مسيحي حارب الغزاة خليفة (scutarius) لآخر ملوك القوط، بل جعلوه حفيد آخر ملك طليطلي، رودريك Roderic، وبذلك جعلوه الوريث الشرعي للعرش.

وهذا الاهتمام بالشرعية في النظام الجديد واضح أيضاً في وثيقة مؤرخة عام 760 تقريباً، جاء فيها أن أودساريوس (Odsarius)) مطران لوجو، يقول إن الملك ألفونسو، يمثّل الشرعية التاريخية للسلالة المالكة. ولقد قال ألفونسو الثاني في عام 832 عن ألفونسو هذا إنه: خلاصة الشرعية القوطية المقدَّسة. ودون شك يؤكد كاتب التواريخ المنسية (Chronicon silense) لنفس الأسباب السياسية أن ألفونسو السادس سيكون: الاستمرار الشرعي للملوك القوط. على أن إسباغ الشرعية هذا لم يؤكد عليه فقط لتأكيد ظلم غزو العرب المسلمين وإنما أيضاً ليؤكد على حقوق ولاية العرش الطليطلي لملوك أستوريا، لذلك فإن كاتب تواريخ Albedense يشير فقط إلى تلك بوصفها ordo gothorum.

ونجد أيضاً الدليل على استمرارية القومية هذا بين ملوك القوط في الماضي والحاضر أيضاً في الإبقاء ولقرون على اسم أسبانيا (أو هسبانيا)، سواء بالنسبة لممالك القوط أو بالنسبة للأراضي التي ينبغي استعادتها من الغزاة العرب.

وبهذا المعنى، يجب أن نتفق مع ر. منينيز بيدال الذي ذكر أنه: «من الاعتباطي إنكار وجود مفهوم أمة في إسبانيا العصور الوسطى، وكذلك وجود

فكرة دقيقة أو رسالة استعادة أو انتصار»، على وجه الخصوص في إطار مرجعية الماضي القوطي. ورغم أن ثبوتية صدق الوثيقتين القديمتين محل السؤال، إلا أنها توضح بجلاء اهتمام الملوك الأوائل في التأكيد على شرعيتهم كحكام وفي تبرير ادعاءاتهم في الأراضي، والمعتمدة على كونهم استمراراً للسلالة الملكية للنظام القوطي.

وكما يوضح التاريخ، كانوا في الحقيقة، يبنون أسس أمة جديدة، رغم أن أولئك الملوك ومؤرخيهم لم يكونوا واعين أو مدركين لذلك، بل وربما لم تكن نيتهم كذلك.

كذلك من الواضح الدور الهام الذي لعبه الدين والحساسية الدينية، معاً في النظرة العامة للتواريخ المبكرة لحرب الاستعادة الإسبانية وفي الدوافع والنظرة التاريخية التي جعلوها موضوع كتاباتهم التاريخية (السجلات التاريخية).

فجوهرياً كانوا يشعرون أن الله، جلت قدرته وعلمه، يراقب الناس ويوجههم أفراداً وجماعات. وكما هو الحال في كل الأحيان وفي كل الأفعال البشرية الأخرى، فإنه (أي الله) يتدخل في معارك البشر ليهب النصر للبعض ويلحق الهزيمة بالآخرين. وبالنسبة للمسيحيين فإن النصر إشارة واضحة من الله بالقبول والتأييد، وهو تأييد قد لا يستحقونه كلياً، وأن عليهم أن يكونوا شكورين لله. كذلك فإن الهزيمة في المعركة، كأي حظٍّ عاثر، ليست مشيئة الله المباشرة والمقصودة؛ فالله لطيف بعباده، وإنما هي ذات وظيفة روحية خاصة، أو بشكل عام، هي عقاب لبعض الذنوب الحاضرة أو في الماضي، أو لذنوب فردية أو جماعية وهي ذنوب قد تكون معروفة أو غير معروفة. لكن مع ذلك ليس هناك من شك أن الهزيمة ليست سوى عقاب مؤقت فقط إذ إن المؤمنين سينتصرون في النهاية. وعلى أساس منطق شائع وتقليدي، يعطي الكتاب اللاهوتيون نفس الحقوق للأعداء غير المسيحيين الذين يصبحون في اللاهوت والتاريخ المسيحيين، مجرد دمى أو أدوات يستخدمها الله ليظهر عظمته وعنايته. فالله يهب النصر للعصاة والكفار فقط حينما يريد أن يهين أو يمتحن عباده المؤمنين.

توازي هذه الفكرة مفهوم اللطف اللاهوتي الذي يرجع إلى المصادر التوراتية والإنجيلية (الكتاب المقدس) ويجد طريقه للتطبيق في التفسير المسيحي للأحداث طوال التاريخ. ولقد وجد هذا النوع من التفكير صياغته المتميزة في الغرب اللاتيني في كتابات أغسطين وفي كتابات صديقه وتلميذه أوريسيوس (Orisius).

وللدفاع عن المسيحية ضد تهمة أنها كانت سبب سقوط روما، طور القديس أغسطين في كتابه «مدينة الله» (De Civitate Dei) وطور أوريسيوس في كتابه (Maesta Mundi) بشكل تفصيلي معتقداً لاهوتياً للتاريخ يكون فيه الله وعنايته أو لطفه المحرك الأساسي.

وفي ظل هذا الإطار الروحي، يعطي كتّاب التواريخ الإسبانية المبكرة أهميةً لاهوتيةً لسقوط مملكة القوط المسيحية على يد الكفار العرب. وبحسب تفسيرهم، تعزى المسؤولية اللاهوتية والأخلاقية لاستيلاء العرب على الأراضي المسيحية ومن ثم الهزيمة المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الأفعال الشيطانية التي قام بها الملك لذريق ورجال الكنيسة والمجتمع ككل. وعلى أي حال، فإن الهزيمة المسيحية التي أنهت مملكة القوط هي عقاب إلٰهي، ويجب تحملها طالما عجز العصاة عن إصلاح شأنهم.

ولم تقع عملية الاستيلاء والاستعادة كلها لمثل هذه الاعتبارات اللاهوتية، وإنما وقعت أيضاً أحداث محدّدة ومعارك معينة لنفس الاعتبارات. ومن ثم فإن اهتمامات كتاب هذه التواريخ هي عزو انتصارات الماضي لله والتضرع له للنصر في مواجهات المستقبل.

فالحرب لم يكن ينظر إليها من منظور ديني، وإنما كانت ترى بوصفها حدثاً له معنى لاهوتي ينتج مباشرة من خطط إلهية. فلقد أراد الله لكفار العرب المسلمين، أن يهاجموا بشكل ظالم، حكومة مسيحية شرعية؛ وذلك للتأكيد على إبراز المعاصي والتجاوزات التي قام بها المسيحيون. وبكل تأكيد لن يسمح الله للأبد أن يُهزم المسيحيين؛ لكن النصر في المعركة لا يتأتى فقط من مجرد عودتهم لله وكسب رضاه.

وكما هو شأن الاستيلاء فإن حرب الاستعادة ستنتهي أيضاً حينما يريد الله ذلك. وبالنسبة لكاتب Chronicom albedense فإن مكافحة المسيحيين للعرب المسلمين ستنتهي فقط «حينما تقتضي عناية الله طردهم دون رحمةٍ من (إسبانيا)».

ولقد تم التعبير عن هذا المنظور الديني حول الأحداث السياسية في شبه الجزيرة بشكل أوضح فيما سمي بالتواريخ التنبّئية (Chronica prophetica). فكاتبها يؤمن بأن سقوط الممالك القوطية والاستيلاء على الأراضي من طرف العرب المسلمين هو بداية تحقيق نبوءة حزقيال (Ezekiel) ضد يأجوج ومأجوج. وتحقيقها الكامل سيلي تحول يأجوج ومأجوج واستعادة الأراضي المفقودة. وفي هذا النوع من تفسير التاريخ، يكون الله هو المحرك الأول، لكنه لا يكون مساهماً مباشراً؛ ويكون الدين هو التأويل لكن ليس السبب المحوري، للحروب ضد المعتدين.

إذن على الأرض الإيبيرية، ينبغي اعتبار الحرب أولاً حرباً من أجل الأرض، لكن هدفها النهائي هو استعادة النظام القديم الذي كان قائماً في الماضي. وهذا النظام هو نظام مسيحي اجتماعياً وسياسياً، ولذلك فقد كان يُرى، خلال الفترة الأولى المبكرة من حروب الاستعادة، في ضوء مصطلحات الماضي القوطي. وقضية استعادة السلطة المسيحية تضيف فقط أهمية على حرب الاستعادة، وتجعلها تبدو حرباً عادلة لأسباب سياسية أيضاً.

فالفرق بين فكرة الحرب العادلة (bellum justum) دون أو مع وجود معاني دينية وحرب مقدسة والتي تصبح الحرب الصليبية هي السمة المسيحية الرسمية لها، يكمن في مبادىء مجردة جداً قامت عليها الفكرة الأخيرة (حرب مقدسة). فتبرير حرب ما بالضرورة يتطلب انتهاكاً فعلياً لحقوق أمة ما أو ملوكها أو أراضيها أو مواطنيها. وفي حالة الحرب «المقدسة» فإن المبادىء المأخوذة في الاعتبار تكون ذات طبيعة مختلفة؛ فهي «مقدسة» اعتماداً على حقيقة أن الخصم لم ينتهك العدو أو حقوقه وحسب وإنما انتهك النسق الديني الذي يمثله أيضاً. وعليه، فإن الهزيمة لا يمكن أن تعد عقاباً للطغيان وإنما هي محاكمة، لا يدافع فيها المخطىء، سواء أكان فرداً أو مجتمعاً عن

نفسه أو حقوقه وإنما يدافع عن الحقوق الدينية التي أعطاها الله للجماعة ككل.

وهذه بكل دقة هي المفاهيم والمشاعر المفقودة في كل التواريخ المكتوبة خلال الفترة الأولى لحرب الاستعادة. فيقاتل ملوك المسيحية، سواء أكانوا يقاتلون في ظل حماية الله أو بدونها، لإقامة نظام سياسي لحماية حقوق ممالكهم الفردية، وتفتقد كل التواريخ توجهاً كونياً أو جماعياً.

يشير الباحثون إلى عزلة إسبانيا المسيحية عن بقية أوروبا المسيحية خلال القرنين الأولين بعد الغزو. ورغم أن هذه العزلة حقيقية من الزاوية السياسية، فإنه يجب أن نعدلها فيما يخص جانباً آخر، إذ إن هذه العزلة لا تنطبق على الروحانية التقليدية للأسبان. فالمسيحيون القوط، سواء أكانوا من (Mozarabs) أو سواهم، استمروا في التمتع بمستوى عالٍ من الثقافة المسيحية التقليدية، وكذلك استمروا في الاحتفاظ والالتزام بنماذج واتجاهات مشابهة لتلك التي كان يحتفظ بها عصر البعث الكارلنجي كما هو واضح من وجود العديد من الأعيان الأسبان في البلاد الكارلنجية. ولكن هذا مع ذلك لا يصدق على سياساتهم. ولا يظهر شيء في تواريخ تلك الفترة يشير إلى أنه كانت عند ملوك إسبانيا أية فكرة أمبريالية (إمبراطورية) تشبه ما كان عند شارلمان؛ أو أنهم كانوا مستعدين أن يعاملوا الامبراطور بشكل مختلف عن طريقة معاملتهم للعرب المسلمين ـ كما توضح الحوادث التاريخية خلال بعثة الامبراطور الإسباني. لقد رحب به طالما كان مشجعاً لبعثاتهم السياسية والعسكرية ضد العرب المسلمين: فلقد كان يعد خطراً عسكرياً حينما شعر ذوو النزعة العصبية الإسبانية أنه يتحدى استقلالهم بسبب الطموحات السياسية الأمبريالية (الامبراطورية).

ولقد قيل «إن الإنسان خلال معظم العصور الوسطى إنما يكون مسيحياً أو مسلماً أولاً وقبل كل شيء، ثم ابن المنطقة التي ولد فيها وأحد رعايا النبيل المحلي بعدها، وأخيراً فقط يكون فرنسياً أو مصرياً أو ألمانياً». لكن مع ذلك إلى أي مدى كان هذا يمثل النظرية السياسية خلال الفترة الكارلنجية في أوروبا والمثالية السياسية في شبه الجزيرة ـ يبقى معتمداً على التجزئة الجغرافية التي تلت تدهور وتمزق الامبراطورية الرومانية. ففي شبه الجزيرة،

كانت الولاءات المحلية والطموحات السياسية تُحدد في الواقع على أساس حدود ما كانت عليه الممالك القوطية وبعدها فقط تكون ذات طبيعة دينية.

وللتأكيد على العزلة الروحية للقطاع المسيحي لشبه الجزيرة الإيبيرية فإنه ينبغي أن نشير هنا للعقلية الأوروبية المعاصرة كما عرفها البابا والامبراطور.

ففي أوروبا، نجد أن روما الدنيوية تمثل، بنظامها المسيحي وحضارتها الرومانية، الجسد المادي للكنيسة، وهو مفهوم قديم. فلقد كان في الحقيقة، النتيجة النهائية للتحول من روما الوثنية (Roma pagana) إلى روما الخالدة Roma aeterna وأخيراً روما المقدسة (Roma Sancta) والذي بدأ مع دخول أو تحول الأباطرة الرومان إلى المسيحية. ولقد كانت هذه الفكرة المثالية الموجودة فعلاً في نهاية الامبراطورية الرومانية قد أصبحت ذات فاعلية سياسية في الغرب المسيحي مرتبطة بالطموحات الكونية للامبراطورية الكارلنجية وتحالفها مع الثقافة المسيحية، كما يمكننا أن نرى في تأسيس المفهوم السياسي والديني لإمبراطورية رومانية مقدسة.

فنظرية الوحدة السياسية الممتدة إلى ما لا نهاية والتي تشمل كل المسيحيين داخل دولة مسيحية واحدة (res publica christiana) أي الجامعة المسيحية، والتي توسعت كلّياً في الامبراطورية البيزنطية؛ هذه الفكرة كان تطورها في الغرب المسيحي يحدث مرتبطاً بالامبراطورية الكارلنجية، كما أصبح بسهولة جزءًا من النظرية السياسية الأوروبية.

وكانت الإمبراطورية المسيحية (Imperium Christianum) تشير إلى الأراضي التي يسكنها مسيحيون. وفي الحقيقة لم يكن المعيار الذي يميز الصديق من العدو توجهاً داخلياً لكل إنسان وإنما كان المعيار قبوله لفعل التعميد الرسمي الذي يختار على أساسه ربه وكذلك إمبراطوره أيضاً. لذلك قيل عن مرويات إيرك الفرملي ومرويات جيرولد إنهما كانا يدافعان عن الحدود بل ويوسعان حدود الإمبراطورية المسيحية. بل لقد ظن الكوين أنه من الممكن الحديث عن توسيع حدود الإمبراطورية المسيحية عن طريق التحول إلى المسيحية باستخدام

العنف الجسدي، وهي فكرة لقيت رواجاً قانونياً كنسياً في قرار غراتياني (Decretum Gratiani) الذي برر الحروب ضد الكفار والهراطقة.

وفي الحقيقة، فإنّ فكرة التوسع العسكري للإمبراطورية المسيحية والدفاع عن دولة الجامعة المسيحية كانت فكرة ضرورية لقيام حرب مقدسة، بالقدر الذي كانت كل الحروب تتحقق على أساس هذا الغرض لتصبح حرباً مسيحية عادلة، ويكون أي تحالف مع العدو عبارة عن مواجهة مباشرة مع الدين المسيحي. وكانت القرارات المنسوبة غالباً للبابا ليو الرابع (847 ـ 55) تدعو الجيوش الامبراطورية لشن الحرب ضد برابرة أوروبا الشمالية والوعد بالجنة لمن يسقطون في أرض المعركة، وتفجر غضب البابا جون الثامن (872 ـ 82)، مستنكراً ما أسماه بالتحالف غير التقي للبلدان التي لها تحالفات صداقة أو تعايش مع العرب المسلمين المهددين لروما، ومثل هذا الغضب ينبغي أن لا يكون مستغرباً.

في بداية القرن العاشر طلب نبيل من برجندي اسمه برنون، الذي كان رئيس دير رهبان جنجي من التقي وليم الثامن، دوق اليكوين، الحصول على قرية كلوني الصغيرة لرهبانه. ولقد تحقق طلب برنون في سبتمبر عام 910 وتأسس ديرجديد. ولقد كان هذا الدير معفى من كل السلطات المدنية واللاهوتية ولا يقع تحت أي سلطة سوى سلطة بابوات روما، وكان على الدير أن يدفع سنوياً مبلغ عشر جنيهات ذهبية كإشارة لهذا الارتباط.

لم يكن تأسيس هذا الدير حدثاً هاماً ولا إصلاحاً جديداً، بل على العكس من ذلك تماماً. لقد كان يتبع اتجاهاً متواضعاً لكنه ملاحظ من خلال المثاليات التنسكية التي كانت تسعى للهروب من العالم بالمعنى التقليدي جداً للكلمة. وكما هو حال الديارات الأخرى التي تبحث عن طريقة حياة مشابهة ومستقلة، لم يُدفع الرهبان الإصلاحيون في كلوني إلى إصلاحهم نتيجة حماس دعوي. ورغم أن كلوني ستعد بعد ذلك المبدعة لفكرة الحرب المقدسة، فلم يكن هدفهم الأساسي هو توسع المسيحية وإنما كان هدفهم هو الإصلاح الداخلي الذي يتم الوصول إليه بشكل صحيح عن طريق الاستقلال التنسكي عن التدخلات السياسية واللاهوتية.

ولم تكن رغبتهم في إخضاع الأسس الجديدة للسلطة المباشرة للقديس بطرس وخلفائه من البابوات ـ Juris sunt sancti Petri ـ كوسيلة للوصول إلى الحرية الرومانية libertas romana بالرغبة الجديدة، لكنها أعطت الدير نوعاً من الإعفاء المقدس من القوانين العلمانية واللاهوتية وهو ما كان له نتائج بعيدة المدى.

ويمكن اعتبار الإصلاح الكلوني لمفهوم تحالف الكنيسة مع الامبراطور بوصفه أحد الـ potestas، لكن بتبني المركزية القوية التي كان يمارسها بنديكت الأنياني قبل قرون، وباتباع مفهوم عالم المسيحية الكارلنجي من حيث المبدأ، وإن كان يختلف فقط في اعترافه بالبابا، بدلاً من الامبراطور بوصفه السلطة الأعلى jus supremum.

ولم يكن دير كلوني أساساً مهتماً بالكفار، سواء أكانوا مانويين أو عرباً مسلمين، أو بالإصلاح الكوني للحياة السياسية واللاهوتية في ديار المسيحية، لكن مع ذلك بدون دير كلوني ممثلاً في عونه وإصلاحاته لا يمكننا أن نفهم فكرة الحروب الصليبية أو ما عرف بالإصلاح الغريغوري.

وفي هذا المجال، يجب أن نصر على أن الإصلاح الجديد كان سيتعارض، وإن كان في البداية بشكل لاواعٍ مع المجال السياسي، وكان يحمل داخله بذور نظرية سياسية جديدة كلّياً عن الحقوق الكونية للبابوية.

وفي الواقع كان من غير المحتمل جداً أن لا يكون رئيس الدير برنون أو وليم الكوينتي قد تخيلا أو حتى حلما بأهمية الإصلاح الكلوني. وإنما كان العمل الشخصي لرؤساء الدير من أمثال برنيو (الذي ترأس الدير من 910 ـ 26) والقديس أودو (926 ـ 942) والقديس مايول (954 ـ 994) والقديس أوديلو (994 ـ 1049) وأخيراً القديس هيجو (1049 ـ 1109) هو الذي جعل لإصلاح كلوني أهميته. فمع هؤلاء وبسببهم نما تأثير رهبان كلوني في كافة بلاطات أوروبا، مثل الأباطرة هنري الثاني وروبرت التقي أو الوَرِع وسانشو عمدة نافارا بل وحتى ستيفن المجري الذي تحول حديثاً للمسيحية. لقد ظهر

الرهبان في هذه البلاطات بوصفهم حماة التفسير الإصلاحي للمفهوم الكارلنجي للنظرية السياسية والدينية.

فبعد أسر رئيس الدير مايول، حدث أول احتكاك مباشر بين رهبان كلوني والعرب المسلمين أثناء المقايضة على حريته من الأسر. ورغم أن الحادثة لم تكن حادثةً نادرة الوقوع، وبالتأكيد لم تكن فعلاً حرباً دينية، إلا أن أسره اعتبر من طرف رئيس الدير أديلو، الذي دوّن السيرة الشخصية لمايول فرصةً أججت التدخل الإلٰهي لهزيمة العرب المسلمين «العتاة».

ما كان الإصلاح الكلوني موجهاً أساساً وبشكل مباشر ضد الكفار، كذلك لم تكن الحرب الصليبية كحرب مقدسة موجهةً مباشرة ضد الإسلام. لكنّ تطور هاتين المسألتين أدّى إلى ذلك؛ فبنفس الطريقة التي رأى فيها البابا ليو الرابع مشروعية استخدام القوة لنشر المسيحية في أوروبا، فإن بابوات الإصلاح في قرون تالية اعتبروا أن من حقهم استخدام السيف لحماية الشعب المسيحي ضد أعدائهم الداخليين من ملوك ومطارنة متاجرين بالدين، بل وحتى الامبراطور. وأهمية ما أنجزه رهبان الإصلاح الكلوني المتنوعة سواء أكان في عدد وسمعة أديرتهم أو في تأثيرهم السياسي، إضافة إلى التعميم الكلوني (saeculum cluniacense) الذي حل تدريجياً محل التعميم الدوري الأخوي (saeculum ferreum) الذي انتهى بالسقوط الكارلنجي.

وهكذا فإن البابا ليو التاسع (1049 ـ 54) وهو الراهب والمتنسك الذي قضى معظم حياته في حروب دفاعاً عن الكنيسة؛ مات بينما كان يؤكد على حق البابوية وحق كنيسة روما ضد البطريرك البيزنطي ميشيل سيرولاري (1043 ـ 58).

لكن مع ذلك فإن فكرة الحرب المقدسة والحرب الصليبية قد أصبحت واقعاً جلياً في عهد البابا إسكندر الثاني (1061 ـ 63) وذلك في تبنيه ودعمه العلني والرسمي لحركة الـ Pattari التي كان يرأسها إيرليمبالد الذي حصل على وسام القديس بطرس من البابا بعد سقوطه ميتاً في معركة والذي شيّع كشهيد للمسيح.

ولقد دعم البابا إسكندر الذي حَرّكَتْه نفس الروح حملات الأخوين، روبرت

وروجر جسكار، ضد المسلمين في صقلية، وكذلك أيَّد انتصار وليم النورماندي بإنجلترا. وكان قد أرسل لوليم الأعلام البابوية كرمز للاعتراف البابوي الرسمي بالصفة المقدسة للحملة. وبنفس الروح، نظم البابا حملةً تحت قيادة وليم دوق أكيتانيا ضد بربشتر التي كانت لا تزال تحت السيطرة الإسلامية. ولقد انتهت هذه الحرب الصليبية عام 1064 باستعادة المدينة وبذلك رسمت بداية ما عُرف بالحرب الصليبية الفرنسية في إسبانيا.

ولقد تميّزت بداية القرن الحادي عشر بحادثة ذات أهمية خاصة لكل العالم المسيحي ـ ألا وهي انتهاك الأماكن المقدسة في القدس على يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. ففي عام 1009 أمر الخليفة المتعصب الحاكم بأمر الله، وبشكل مزاجي، بهدم الضريح. واقتُلعت الكاتدرائية من أسسها، وإن لم تُجتث كلياً مع ذلك.

ضُخّمت هذه الحوادث من طرف الكتّاب الغربيين الذين أعطوا المعنى النشوري لمحاولات الخليفة الفاشلة في تحطيم الكاتدرائية. ونظراً لأن هذه الحوادث وقعت في وقت كان فيه الاعتقاد في الأماكن المقدسة ذائع الشعبية فإن الحادثة تركت أثراً عميقاً في العالم المسيحي الغربي.

وحينما استولى السلاجقة عام 1070 على القدس من الفاطميين لم يحرِّك العالم المسيحي سياسياً ساكناً. ليس حتى عام 1073 حينما قدم ميشيل السابع للاعتراف بالسيادة الرومانية في مقابل مساعدة عسكرية ضد الأتراك؛ عندها أصبح البابا غريغوري السابع مهتماً ببيزنطة والأراضي المقدسة. ولقد عجّل من هذا التدخل اهتمام البابا السياسي بتوسيع تأثير روما عن طريق حلمها الديني في توحيد الكنيسة المسيحية كلها تحت سلطة بطرس وخلفائه من البابوات.

وهكذا فإنه حينما ردد الامبراطور أليكسس كومنيس نداءه لطلب المساعدة، قرر خليفة غريغوري، البابا أوربان الثاني السعْي لإنجاده.

ومع Deus lo volt وخطاب أوربان في كليرمونت عام 1095، قامت الحرب الصليبية الأولى ضد الإسلام. وبذلك دُفعت نظرية دولة العالم المسيحي الموحدة

إلى نهاياتها المنطقية. ومالت الحروب الصليبية ضد منطقة شرق المتوسط إلى إعطاء الحروب الإسبانية مكانة ثانوية. لكن هذا التغيير يجب أن يعزى إلى الجاذبية الرومانسية للأماكن المقدسة وذلك تمشياً مع الاتجاهات والعواطف الدينية المعاصرة آنذاك وليس لوجود أي تغيير حقيقي في الأسس اللاهوتية للسياسة.

وكان هناك آنذاك، كما كان من قبل، اهتمام واضح من طرف البابوات الإصلاحيين في إعطاء أهمية للحملات الإسبانية التي غالباً ما تذكر وتقارن بالحملات الصليبية في الأرض المقدسة.

ومع حلول الجزء الأخير من القرن العاشر، دخل الإصلاح الكلوني إسبانيا، وكان يعيد بشكل سريع بناء وترميم الأديرة القديمة، ويؤسس أديرة جديدة في المملكة المسيحية في شبه الجزيرة.

ورغم أن الرهبان الكلونيين لم يعملوا مباشرة على استحداث مفهوم الحرب ضد العرب المسلمين، إلا أنهم أدخلوا تغيرات جوهرية على الحياة السياسية والدينية، حولت عملية التجديد في شبه الجزيرة بحيث يمكننا فعلاً أن نشير إليها كمرحلة ثانية في حرب الاستعادة الإسبانية. ففي ظل هذه الفترة حلت تدريجياً الممالك المسيحية محل الفكرة المثالية القديمة عن الاستمرارية القوطية بمفهوم جديد للروحانية في شبه الجزيرة، وهذه حقيقة رغم أنها معروفة إلا أنها لم تعط أهميتها التي تستحق.

وفي القرون الماضية عاش المسيحيون في شبه الجزيرة حتى من لم يكونوا تحت الحكم المسلم، بشكل عام، غرباء عن المفهوم الامبراطوري للجامعة المسيحية العامة. ولقد أدت قرون من السيطرة الكلونية إلى حركة معاكسة لهذه العزلة، في كلٍّ من الحياة الدينية والسياسية للممالك المسيحية، وأدى ذلك في النهاية إلى تأسيس هذه الروح الجديدة في ظل سيطرة روما داخل المدار الفرنسي.

ففي المجال الديني، ترك الغزو الرهبان الكلونيين الفرنسيين بصماتهم

الخاصة على الحساسيات الدينية في المناطق الإسبانية. وكانت آراؤهم غالباً معاكسةً للعادات والمواقف والآراء التقليدية عند الرهبان ورجال الدين الأسبان. وبهذا الخصوص، يجب علينا أن نذكر الراهبين الكلونيَي التنشئة دالماتيوس ودياجو جلميريز اللذين نشرا أسطورة القديس جيمس التي جعلت من ضريح كامبوستيلا دي سانتياغو ثالثاً في الأهمية بعد روما ومدينة القدس. وكذلك لا ننسى برنارد السيداركي، أول بطريرك لطليطلة بعد استعادتها من المسلمين، الذي أحضر معه إلى المدينة القديمة حاشيةً لاهوتية ذات أصول فرنسية لتساعده في جعل أديرة طليطلة مشهورة.

أما على المستوى السياسي فإنه كنتيجة للتوسط الكلوني والنصح، سعى البيت الأكيتاني المالك إلى إقامة تحالف عن طريق الزواج مع ملوك اسبانيا المسيحية؛ وهكذا فإن ابنة وليم، أغنيس، أصبحت الزوجة الأولى للفونسو الرابع ملك قشتالة. وتزوجت ابنة أخرى بدرو الأول ملك نافار وأراغوان، وتزوج وليم التاسع، دوق ناحية التروبادور بأكيتانيا، أرملة ملك أراغوان.

وقد يكون مثار سؤال الذهاب إلى أن كل هذه الأفعال التي قام بها الرهبان الكلونيون ذوو الأصول الفرنسية في شبه الجزيرة خلال القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر كان دافعها خطة توحيدية بضم الأراضي الإسبانية في المدار السياسي لروما وأكيتانيا. والأكثر احتمالاً هو أن الرهبان الكلونيين الذين مثلوا إلى الآن الروحانية الكونية لمسيحية إصلاحية إنما كانوا يسعون إلى تغيير التقليد القومي لشبه الجزيرة القوطي عن طريق ضمّ الأراضي الإسبانية الرسمية داخل الدائرة السياسية والروحية للعالمية المسيحية الجامعة. وفي هذا الوقت كان المصطلح الأكثر استخداماً وشيوعاً الديار المسيحية (christiantias) وهو ما عكس بشكل أكثر حميمية الدور الذي للدين والكنيسة.

إن مثل هذه التغيرات في الشعائر الدينية. يوصفها بديلاً عن الطقس القوطي الذي استبدل به الطقس الروماني، واستبدال الحرف القوطي بالحرف الكارلونجي الذي فُرض بالقوة على رجال دين شبه الجزيرة من طرف المصلحين الفرنسيين، لا يحتاج أن يُفسر على اعتباره دليلاً على طموحاتهم القومية. وبدلاً من ذلك يمكن أن

تُفهم بشكل منطقي بوصفها مظاهر روح كونية، أو عدم رغبة في التلاؤم مع خصائص كنيسة لوَّنها التعايش مع العدو المسلم.

إضافة إلى ذلك، فإن ادعاء غريغوري السابع بأن المناطق الإسبانية حتى تلك التي لا تزال تحت السيطرة المسلمة إنما هي جزء من أرض القديس بطرس، وبذلك فإنها تحت السلطة البابوية المباشرة، ولا يحتاج ذلك إلى دليل على مطامح البابا السياسية، وعلى اعتبار شبه الجزيرة جزءًا لا يتجزأ من الجسد المسيحي. فبالنسبة لغريغوري السابع، فإنّ حق القديس بطرس هذا في الأراضي والمناطق الإسبانية يستتبع التبعية والولاء من طرف الأسر الحاكمة القائمة بل وحتى حق الاعتراف بالملوك الجدد.

وهكذا فإنّ الإذعان لمفهوم الـ Patrimonium هو الذي جعل لغريغوري السابع الحقّ في إعطاء الكونت ابليس الرونسي السلطة على أراض سيتمُّ الاستيلاء عليها من الشعوب الوثنية. وفي عام 1073 حينما كان البارونات الفرنسيون يخططون لغزو آخر على المناطق المسلمة في شبه الجزيرة، كان البابا غريغوري يكرر الحق البابوي في إعطاء سلطة قانونية على أية أرضٍ تمَّ الاستيلاء عليها. وبحسب نفس المبدأ السياسي، . قبل البابا غريغوري السابع وبعدها خليفته اوربان الثاني مملكة أراغون بوصفها تابعةً للبابا، بل والملك سانشو راميريز نفسه باعتباره خادماً (تابعاً) للبابا وسلطة القديس بطرس المقدسة. ولقد شهد القرن التالي البابا إسكندر الثالث (1159 ـ 81) الذي منح لقبا ملكياً للفونسو أنريكيز (1179) تقديراً لجهوده ضد المسلمين. وبهذه الطريقة، أصبح الدين وتقدير البابا هما الأساس للشرعية الملكية في إسبانيا.

وكدليل إضافي للمفهوم الكلوني لمسيحية تتجاوز الحدود القومية يمكننا أن نشير لاهتمام أكيتانيا في إسبانيا وحربها المسيحية للاستعادة.

فلقد أشير إلى أن الروح التي دفعت شوغر رئيس دير القديس دنيس إنما كانت ايدولوجية وإن هذا الـ renovati (التجديد) لا يتعامل كثيراً مع الأحداث التاريخية في تصوير لشارلمان في أغنية رولان الملحمية. ولقد كتبت لأول مرة عام 1100،

تصورات رولان لشارلمان بوصفه حاكماً لمملكة مسيحية كونية يجعل ميدان نشاطاته إلى ما هو أبعد من جنوب فرنسا وإسبانيا وإلى ما هو أبعد من آخن «Achen». فالأغنية تنسب للإمبراطور أفعالاً أسطورية مثل الاستيلاء على شبه الجزيرة الايبيرية إلى أقصى جنوب قرطبة (الأبيات 70 ـ 71)، في قلب المجال العربي المسلم. وقبل ثلاثة أرباع القرن قبل رولان، روّج المغنون هذا الاعتقاد الذي سجل أيضاً في تاريخ خصص للكونتات وتاريخ كونتية أكيتانيا كتبه أديمار دي شابان. وفي سجل الدير التاريخي، استمر هذا التقليد بوصفه التقليد الصادق لـ gesta الكارلونجي. أما الحروب الصليبية التي قام بها الفرسان الفرنسيون في إسبانيا ضد العرب المسلمين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر فإنها لم تحقق رغبات البابوية والعلاقات الموجودة بين الكنتية والملوك الإسبان وإنما أيضاً كانت «عبارة عن محاولة لصنع واقع تاريخي يوازي الأسطورة الكارلونجية التي أبدعها المغنون وأبدعتها تواريخ الديارات.

إذن منطقياً قد نفترض أن رهبان كلوني الذين كانوا وسيلةً لكلّ الملوك الإسبان، وكانوا أيضاً أداةً لتحقيق هذا التجديد الكارلونجي عن طريق الحروب الصليبية في إسبانيا.

وكنتيجة، فإننا نرى هذا واضحاً، عبر عدة قرون، من طرف مطارنة ورهبان كلونيين وفرسان فرنسيين وبابوات اصلاحيين، ليصنعوا من فترة حرب الاستعادة الإسبانية عصر بطولة دينية.

ولذا فإن التواريخ الديرية غالباً ما تعزو عظمة ملحمة رولان للمعارك ضد العرب المسلمين ومن الأمثلة على ذلك تاريخ chronica adelfonsi imperations الذي رويت فيه حملات الفونسو في المرية باستخدام مصطلحات ملحمية مع إشا. مباشرة لغزوات شارلمان ـ facta sequens caroli. وفي نفس المعنى فالقصيدة اللاتينية Campidoctions والتي وإن كانت غير موقعة إلا أنها خرجت بوضوح من قلم ديري تحمل سمات ملحمية في مدح السيد [القنبيطور] وغزواته ضد المسلمين الكفار. فلقد قورن السيد (Elcid) بهكتور وباريس، وقورنت معاركة بحروب طروادة. وعلى العكس، فإنه في النسخة الشعبية لهذه القصيدة

والمعروفة بـ Mio cid، نجد أن اهتمام المؤلف في المعركة ضد المسلمين بوصفهم كفاراً ثانوي فقط، هناك تركيز كلي على الشخصية التاريخية للراهب الكلوني جيروم البيرجوردي، أسقف فالنسيا لاحقاً. فالأسقف لم ينافس السيد في مواجهاته الدامية والعنيفة ضد الكفار وحسب؛ بل إنه هو نفسه صار بطلاً ملحمياً.

وفي هذه العملية الكلونية التي تعيد صنع حرب الاستعادة في شكل عصر بطولة، كانت المفاهيم الأساسية للعناية والقدرة الإلهية المفسرة للتاريخ لاهوتياً قد أُعطيت هي الأخرى تفسيراً جديداً. فلقد كانت فكرة التدخل الإلهي تقليداً مقبولاً في كل أحداث الحياة، بما فيها المعارك باعتبارها جزءًا من المعتقد المسيحي. وأفضل الحوادث المعروفة التي تبرهن على هذا المعتقد كان تحرر بطرس من قيوده على يد ملاك وانتصار قسطنطين الاعجازي على ماكسنتيوس وذلك بوضع إشارة الصليب على تروس وأعلام فرقه العسكرية. وهكذا فإن مساعدة الله السخية وتدخل القديسين التي التمست في الخط الديني والصلوات الخاصة والتي اعترف بجميلها في شكل نذور وتبرعات.

فمن وجهة النظر هذه، كانت الادعاءات في الحصول على المساعدة الإلهية تقوم على مدى تقوى الشخص أو على مدى عدالة قضيته دينياً. وعلى أي حال كانت المساعدة الإلهية تهدف إلى إسعاد المؤمنين وتعظيم الدين الوحيد الحق، وتلك يتم الحصول عليها عن طريق تدخل اعجازي ليس للمؤمنين فيه أي حق. وبهذا المعنى ليس للتدخل أهمية لاهوتية لا يمكن شرحها بالمعنى الحرفي.

ولقد نتج عن تطور كلٍّ من المفهوم السياسي للدار المسيحية والصفة الروحية والمقدسة للحروب ضد الكفار والهراطقة تأسيس لاهوت جديد للحرب وللتدخل الإلهي فيها. وشعر المحاربون أنهم لم يعودوا يحاربون من أجل مصالحهم الشخصية وإنما هم يحاربون في سبيل الله، وكان يتوقع تدخّل الله لصالحهم، رغم أن هذا التدخل إعجازي وخارج على مألوف الحوادث، وأصبح متوقعاً بسبب الصفة الدينية التي يحاربون من أجلها. وبهذا المعنى تغيرت العلاقة بين المقاتلين المسيحيين وإلههم (ربهم) بشكل أساسي عن الإيمان التقليدي. وتجاوباً مع هذا التغيير، تحولت علاقة الله بحروب الاستعادة في شبه الجزيرة

أيضاً، وكان يُعتقد أن الله كان يرسل أولياءه كرسل إلهيين للمشاركة بشكل نشط في المعارك فيقودون المسيحيين للنصر. وهذه الروح واضحة في أعمال الراهب الكلوني بريسو، أول شاعر باللغة القشتالية. ورغم أن أعماله دينية وتقوية أساساً إلا أن قصيدته عن حياة القديس ميلان تظهر مفهوماً عنيفاً للحرب الدينية التي كانت متفقةً تماماً مع الروحانية الجديدة. وبحسب وجهة نظر بريسو فإن جيوش «الملك عبد الرحمن، ملك الوثنيين وعدو كل المسيحيين اللدود» قد هزمت «لأن عقاب المسيح قد تتبَّعَهُم» (المقطع 369).

ومن غضبه ضد أعداء الدين المسيحي، أرسل المسيح رسله، المطران القديس ميلان وحواريه القديس جيمس؛ فظهرا من السموات على شكل فرسان بسيوف قواطع مستعرضين برباطة جأش، وهبطا على الكفار ويقرر بريسو بالأبيات التالية ما حدث بعدها:

وما أن اقترب الفرسان (الخيالة) من الأرض حتى بدأوا في ضرب العرب (المور) بشكل قاتل حتى أنهم أحلوا بصفوفهم الدمار. مما جعل الخوف ينتقل في صفوفهم من أولها إلى الأخير.

وظهر نفس الخليط من المشاعر الدينية والنظرية السياسية كأساس لحرب، لاستعادة فن قصيدة فيرنان غونزاليس التي نظمت خلال القرن الثالث عشر من طرف راهب كلوني مجهول في دير القديس بطرس في أرلانغا (Arlanga). ورغم أنها هدفت أساساً إلى تعظيم شخصية البطل وعلاقته بالدير، إلا أن مؤلفها أظهر بشكل واضح مفهومه السياسي لحرب الاستعادة.

وفي القصيدة، يظهر القديس بلاغيوس للكونت فيرنان جونزالا ليعطيه الأمر الإلهي بتوجيه الجيوش ضد جيوش المنصور ويعلم الكونت سلفاً بنصره على المور بمساعدة بيلاغيوس كما هو واضحٌ من الأبيات التالية:

يأمرك الخالق العظيم ويقول لك بأنك عبده وأنه ربك وأنك ستحارب الكفار من أجل محبته ويأمرك أن تحارب المنصور.

ومن المهم خصوصاً في هذا النص الأبيات الأول من رسالة الله. ففيها تكون

العلاقة بين الله والكونت هي علاقة عبد بربه أو سيده.

وفي دوره النشط كحامي للمسيحيين، يصبح سانتياغو الحاج أيضاً قاتل المور (العرب المسلمين)، والذي سيجعل كل القديسين يحتلون مواقع ثانوية إذ يصبح سانتياغو هذا الناطق الرسمي لحقوق المسيحيين الأسبان الدينية في المناطق غير المستولى عليها.

ورغم الأفضلية الواضحة للجهود الكلونية والغارات (الانتهاكات) في المعتقدات الدينية، فلقد حال القرب المكاني للعدو المسلم في شبه الجزيرة دون قبول مفهوم دار المسيحية العام المجرد الديني باعتباره الدافع الأساسي للحرب. فبقيت حروب الاستعادة الإسبانية في جوهرها صراعاً لاستعادة الأرض التي كان يهتم الملوك في السيطرة السياسية عليها، وليس من أجل خلق ممالك مسيحية patesta christiana بالمعنى الكلوني.

وفي شبه الجزيرة الايبيرية، كان الاغراء الرومانسي للحروب المقدسة في الشرق دائماً أقوى من الصفة الدينية لحروبهم. لذا فإن البابا أوربان الثاني أرسل مرة أخرى برنارد الكلوني إلى إسبانيا، أولاً كأسقف لطليطلة وهو الذي غادر أتباعه عام 1095 ليحضر اعلان أوربان في كليرمونت عن بدء الحروب الصليبية. وحرّم بعد ذلك راهب كلوني آخر هو البابا باسكال الثاني (1099 ـ 1118) على الفرسان الأسبان المشاركة في الحروب الصليبية في المشرق.

لم يفرق في قوانين مجمع اللاتران الأول الذي عقد عام 1123 أثناء بابوية كاليكستوس الثاني بين الحروب الصليبية في الأرض المقدسة وبين الحروب القائمة ضد المسلمين في إسبانيا، حينما كان من المهم التأكيد على الواجب الديني في القيام بتنمية بذور الحروب الصليبية.

لكن وعلى عكس الاعلانات الرسمية التي قال بها البابوات والمجالس، استمرت القدس، مكان الحج في الأرض المقدسة والحروب الصليبية ضد الكفار في المشرق في الاستحواذ على التقوى الإسبانية بجاذبيتها الرومانسية الفريدة. لذا نجد ريموند لال (1232 ـ 1316) في كتابه: «كتاب الفروسية»

يجمع بين مهام الفرسان في القتال والموت كشهداء ضد الكفار مع الحج إلى القدس. فمن الواضح أن الأمر كان بالنسبة له هاجساً، خاصةً وأنه جعل كتابيه: Libro del pasage المكتوب عام 1282 والآخر De acquistione Terrae Sanct الذي قدمه للبابا كلمنت الخامس، يدوران حول نفس الموضوع، وفي كتابه الأخير قدم للبابا خطةً جريئةً للاستيلاء على القسطنطينية. ونجد نفس الهاجس في أعمال ثانوية أخرى له.

إضافة إلى هذه الأعمال، ومع نهاية القرن الثالث عشر، نجد شاعراً ذا تدريب ديري مجهول يؤلف قصيدةً نواحية بالقشتالية حول سقوط القدس. وهدف هذا الشاعر في قصيدته التي تتجلى فيها عواطف شاعرية أكثر منها معرفة حقة إلى تجنيد الأسبان في الجيوش الصليبية.

كذلك كان من خصائص حرب الاستعادة الأسبانية في هذه الفترة رغبة ملوكها الاعتراف بوجود جماعية دينية في مجال حكمهم (ومن الأدلة على ذلك لقب «ملك الدينين» الذي اتخذه الفونسو السادس، وكذلك شهامتهم في إعطاء حقوق دينية للجميع؛ وهي الامتيازات التي غالباً ما جعلت الملوك في مواجهة مفتوحة مع الكنيسة.

وكان من الواضح أنه لم تكن هناك معارضة أساسية ضد التعايش مع الدين الإسلامي بعد القضاء على قوته العسكرية والسياسية، ولا إلى اعتراف بـ imjiam foedurs، كالذي كانت ضده بابوات روما. وفي الحقيقة غالباً ما تحالف ملوك إسبانيا أنفسهم مع ملوك مسلمين، حتى أثناء الحروب الصليبية في شبه الجزيرة. ويقدم هذا ما يمكن أن نسميه موقفاً تقليدياً نحو المسلمين في حرب استعادة إسبانيا. وهذا الموقف التقليدي استمر يظهر في جوانب برغماتية في حرب الاستعادة، وبين السكان الذين يعتنقون معتقدات مختلفة؛ لكنه لم يعكس النظرية السياسية التي تم إدخالها عن طريق الاصلاح الكلوني والتي أصبحت سائدة، والتي اعتمدت، أساساً على المنطلقات العقدية.

ومن الأمثلة الموضحة لهذا المعتقد ما سنراه في المثال التالي المتعلق بتفسير

سبب الحروب المعلنة ضد المور من طرف انفنتي دون جوان مانيول، رئيس مرسية الفارس والمقاتل والذي غالباً ما تحالف مع حكام مسلمين في زمانه.

«استولى وسيطر [أتباع محمد] على العديد من الأراضي وإلى وقتنا لا يزالون يملكونها، والعديد من هذه الأراضي تخص مسيحيين تحولوا عن طريق الحواريين إلى دين المسيح. ولهذا السبب توجد حرب بين المسيحيين والمسلمين، وستستمر حتى يستولى المسيحيون على الأراضي التي أخذها المسلمون منهم عنوة، إذ بسبب دينهم ومعتقداتهم لن تكون هناك حرب. . .»

ولقد فسرت آراء ووجهات نظر دون جوان مانيول باعتبارها إشارة، ليس فقط للتسامح الديني، وإنما أيضاً إشارة لأهمية الاهتمامات السياسية في حرب الاستعادة الإسبانية. وفي رأيي، لم يأخذ الباحثون مع ذلك في اعتبارهم افتراضية واضحة في كلمة جوان مانيول: أولهما، إن حروب الاستعادة الأسبانية، والتي حارب فيها شخصياً في الغالب، لم تكن حروباً تبشيرية، وثانيهما هو أن الدين فقط وليس المولد هو الذي يقرر حق ملكية الأرض. فإسبانيا كانت أرضاً مسيحيةً ولذا فإنها تعود بحق للمسيحيين بغض النظر سواء ولدوا داخل شبه الجزيرة أم لا.

وفي البداية رأينا كيف أن استعادة الأراض من أيدي الغزاة كانت تعتبر حرباً عادلة اعتماداً على ولاية العهد الشرعية لملوك القوط. أما الآن فإن شرعية وحق حكم الأرض كان يعتمد على ادعاءات دينية؛ فإسبانيا ليست من حق القوط أو المسلمين وإنما من حق المسيحيين. وهكذا فإن فكرة الأمة المعتمدة على أرثوذكسية دينية قد أدخلت.

ختاماً، فإنّ السؤال عما إذا كانت حروب الاستعادة الإسبانية قد أصبحت مقدسةً في ظل التأييد الكلوني يجب الإجابة عنه بالإيجاب. لكن مع ذلك فإن هذا الإيجاب يجب تحديده. فرغم أن الدافع والمبرر لحرب الاستعادة قد أصبح دينياً بشكل أعمق، فإن هذا الموقف الديني لم يواز المفهوم الكوني لدار المسيحية. على العكس، فإن التوسع الديني للمملكة المسيحية، والأرثوذكسية المسيحية مثل ركناً أساساً في القومية الأسبانية.

وحينما دافع الفونسو القرطاجي (1430) عن سموّ أسبانيا على انجلترا في مجمع بازيليا بالعبارة التالية:

«إن فخامة ملك انجلترا، رغم أنه يقوم بالحرب، إلا أنها ليست حرباً مقدسة.. إذ هي ليست ضد الكفار وليست من أجل تعظيم الدين الكاثوليكي العظيم وكذلك ليس من أجل توسع المسيحية».

إنما كان يساوي بين العقيدة الكاثوليكية والمسيحية وبين التاريخ السياسي لقشتالة (Castille). وهذا في رأيي، لم يكن نتاج تأثُّرٍ بالمسلمين، وكذلك لم يكن موقفاً يستعيد تقليداً قوطياً، وإنما كان في النهاية موقفاً يسمح بظهور التراث الكلوني في أسبانيا.